المحطة الثانية

بريطــانيا

رجعت إلى الخرطوم في انتظار ولادة ابني الثاني(ناظم) والذي أطل علينا في٢٣ اغسطس١٩٧٠ واهديته ديواني (نقوش على البحر) الذي صدر في عام ١٩٧٨ عن دار الثقافة في بيروت و كتبت في الاهداء... (إلى ابني ناظم وهو يتعلم رياضة التجديف في الرمل بلاتعب وفن النقش في البحر بلاغضب) و سافرت بأسرتي في ١٣سبتمبر١٩٧٠ إلى لندن.

عوداً إلى مسلسل الوزارة فقد تم اختيار الزملاء الدكتور الطيب زروق والدكتور علي مصطفى بلال للبعثة الدراسية إلى لندن وكنت الوحيد برفقة أسرتي والتي لم تفارقني يوماً في حلي وترحالي وكأنني أحاول قطع خط الرجعة على أي قرار مني أو من الوزارة يعيد عقارب الساعة إلى الوراء، وكان من أول هذه القرارات أن بعثتنا كانت الأولى التي لم تنعم بمنحة هيئة الصحة العالمية والتي تعطي الأولوية لبعثات الطب الوقائي والطب النفسي واكتفينا بالراتب الشهري الذي لايسد رمقاً ولايقضي حاجة.

■ معهد الدراسات النفسية - جامعة لندن

ونزلنا في مطار لندن في ليلة شاتية لن أنساها وفي الصباح الباكر ذهبنا ثلاثتنا إلى معهد الدراسات النفسية. جامعة لندن في شارع (دنمارك هل) بتعبئة استمارات التسجيل أخذنا رسالة إلى المجلس الطبي البريطانى من (مس آرنولد) سكرتيرة العميد والتي تمسك بكل الخيوط وتحرك كل العاملين وتمثل الأم الرؤوم خاصة للمبعوثين من وراء البحار وليس هنالك من لايحمل لها ذكريات خاصة.

وبدأنا رحلة البحث عن سكن و لم تكن للزملاء مشكلة إذ يوجد سكن داخلي في (برنسس مارينا) خلف مستشفى (المودزلي) لغير المتزوجين وكان عندي طفلان وكان من أكبر المشاكل في لندن أن تجد مسكناً يقبل طفلاً واحداً ناهيك عن طفلين وكان لابد لي أن أدفع ثمن القرار الذي اتخذته عن قناعة ورضا وثبتت فيما بعد صحته وحاجتي الماسة إليه.

بدأنا البحث في الأحياء ولوحات الاعلانات المختلفة من (أجل ابنائى) وكانت تلاحقنا في كل مرة عبارة (توجد شقه لاثنين...بدون أطفال،،لا مانع من الحيوانات الاليفة) وقد صدمت من مثل هذه الاعلانات وذهلت من المجاهرة بها وحز في نفسي أن تكون لندن قاسية لهذه الدرجة وبهذه الصورة وعدت ذات ليلة من أحد هذه الماراثونات في يوم جليدي قارس البرد وقلت

لزوجتي: هل نستحق كل هذه المعاناة بعد النعيم الذي عشناه في بلادنا ... هل تستحق لندن كل هذا الشقاء للعيش فيها وهل و هل إلى آخر هذه التساؤلات اليائسة فحاولت أن تخفف من حزني وتهديء خواطري المتأججه فقالت لي : لا تنس كم عانيت في بلدك من أجل الوصول إلى هنا ومن فارق دياره قل مقداره فقلت لها لماذا لا نعود ونسترد هذا الحق المسلوب هنا وهناك وكما قال المتنبي :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت على الناس أهونا

فقالت لي وماذا يقول الناس؟ قلت لها لقد علمتني الحياة أن من راقب الناس مات هما. وكزوجة كل مبعوث أو مغترب ترى في العودة هزيمة نفسيه لنا في المكان الأول ساقت عشرات السيناريوهات التي يمكن أن تصحب هذه العودة واهمها شعور الفشل الذي يتبادر إلى ذهن الأهل والاصدقاء.

اقترحت علي أن تعود بالأطفال إلى الخرطوم حتى تنتهي البعثة أو تنحل الأزمة وكنت قد ناقشت هذا الموضوع سلفاً مع زملائي فقال لي الزميل الدكتور الطيب زروق: لقد تركت زوجتي لأنها في الشهور الاخيرة و لولا ذلك لاحضرتها معي لنعيش في (عشه) واذا فتحت باب العودة للزوجات فسوف نبقى جميعا هنا حتى تلتهمنا وحشة لندن.

وفي المساء زارنا الزملاء مواسين ومعاهدين على المساعدة في البحث عن الكنز الضائع وكان من بين الحضور الدكتور يوسف الصادق وكان من الجيل السابق وشيخ حارة (هيرن هل) الذي عاش التجربة وخرج منها بسكن لاطفاله الثلاثة.

فطلب مني اللقاء في اليوم الثانى وذهبنا سوياً إلى صاحب العقار الذي يسكن فيه واعطانا شقة مجاورة له . يبدو أنه قد تحدث إليه مسبقاً ولم يكن اللقاء طويلاً وما أردنا له أن يكون.

حمدنا الله على نعمته ووطدنا انفسنا على الدراسة وما كان يكدر صفوها إلا ضعف التدفئة مع برودة الطقس وكثرة الجليد و قسوة انتظار الباصات وليل الشتاء الطويل و ضيق ذات اليد.

ونحن نعيش هذه الظروف القاسية ذات مساء جاءنا صاحب العقار في زيارة غيرمبرمجة ورحبنا به وقمنا بواجب الضيافة السودانيه شاكرين له اهتمامه بنا وتفقده لنا وقبل أن يغادرنا بدأ ابني الأصغر في الصياح من شدة البرد أو ترحيباً بالزائر لا أدري فانتفض الضيف واقفاً وقال لي أنت عندك طفل آخر وعقدت لساني الدهشة ولم أعرف ماذا أقول فقد كنت أظن أنه يعرف واستأذن في الدخول إلى الغرفة فوجد الرضيع في سريره فأحمر وجهه وقال لي هذا خرق للاتفاق وقال لي: هذا المكان لا يحتمل طفلا آخر وعليك أن تخلي الشقة وعبثاً حاولت أن اقنعه أن هذا الطفل جزء من أمه ينام معها ويعيش عليها ولا يشغل فراغاً ولا يتحرك فيؤذي .قلت له فيما قلت: اننا في بلادنا نعتبر وجود الاطفال عذراً مشروعاً يشفع للمستأجر وذنباً مغفوراً لايستوجب التوبة ولا يمكن فصله عن أمه فاما أن ترجع به أو نأخذه إلى ملجأ وتحل اللعنة ببريطانيا وحدثته عن حقوق الانسان والرفق بالحيوان وكل هذه العبارات الهلاميه التي تتغنى بها الامبراطورية التي غابت عنها الشمس وبعد أن ودعنا وشيعناه إلى خارج الشقه دخلت إلى غرفتي وكتبت قصيدة (خواطر غريب في لندن) في ديوان (قصائد من بريطانيا) :ص ٣١٩.

ودع همومك إذ تودع لندنا و ارحل الى السودان قلبا آ منا

وقد لاقت هذه القصيدة إحتفاء وقبولاً لاأعرف إن كان مصدره مواساة لي أو تعبيراً عن إحساس مماثل في وجدان المبعوثين، فكانت أول ما طلب مني من القصائد في اللقاءات الادبية عند عودتي إلى السودان وآخر ماطلب مني من القراءات الشعريه في برنامج(اسماء في حياتنا).

لقد ايقنت أن حبي للطب النفسي قد كلفني كثيرا في النصف الاول من حياتي وكنت ادعو الله مخلصاً أن يسعدني في النصف الأخير منه ولسان حالي يقول:

وما شرقي بالماء إلا تذكرا لماء به أهل الحبيب نزول
يحرمه لمع الأسنة فوقه فليس لظمآن اليه وصول

لحقت بنا بعد قليل زوجتا الزميل الدكتور الطيب زروق والزميل الدكتو ر علي مصطفى بلال لنتقاسم التركة المثقلة من ألم المعاناة و نوزع بيننا دم الغربة ونتكاتف على مواجهة الصعاب طوال فترة الدراسة الاولى مع مجموعة طيبة من المبعوثين من وراء البحار من اليمن والاردن والعراق وهون كونج وبورما والارجنتين فتكونت علاقات ثقافية متنوعة تمثل نموذج (الطب النفسي عبر الحضارات) فتعلمنا من بعضنا كثيراً وتعاضدنا أكثر وكنا نجتمع في قاعة

الطعام يومياً نبث شكوانا ونتبادل نجوانا ونواسي بعضنا بعضا فاصبحنا أمة مغتربة ودولة مهاجرة في تجمع صغير.....

عدت ذات مرة في منتصف اليوم للغذاء والاستجمام وكان بعض ما تبقى لنا من ترف الخرطوم والمجد الضائع في أوقات (القيلولة) فشاهدت زوجتي عائدة من مشوار التسوق متدثرة بالمعطف الكثيف محملة بالبضائع تدفع أمامها عجلة الاطفال تقطع بهم الشارع المزدحم بالسيارات في منظر يدعو للرثاء.

قررت أن اشتري سيارة تخفف عنها هذه المشقة اليومية، وما كان ذلك الراتب يكفي فارسلت إلى صديقي الناشر اللبناني الكبير خليل طعمة صاحب دار الثقافة للنشر والتوزيع ببيروت والذي كان يتولى طباعة دواويني منذ أن عرفته عن طريق الأخ الكريم والصديق الحميم الاديب الورع (الحاج عطية) صاحب (المكتبة الوطنية) في السوق العربي بالخرطوم، وكنت أتعامل معه بطريقة سودانية لا تعرف الربح والخسارة وقد كان يقوم بطباعة ديواني (مع رياح العودة) و ما زالت علاقتي وطيدة معه حتى الآن.

في أقل من أسبوع وصلتني رسالة وشيك بمبلغ ثلاثمائة جنيه استرليني اخذته فوراً إلى باركليز بنك وذهبت إلى اقرب معرض للسيارات المستعملة في منطقة (كامبرويل) واشتريت سيارة (اوستن١١٠٠) و احتفلنا كثيرا بهذا الحدث المهم وكانت هذه نقطة تحول في حياتي في بريطانيا حيث اصبح في وسعي أن أسكن خارج لندن واستعين بالسيارة في حضور المحاضرات المحددة واخفف من عبء الحركة على اسرتي في التسوق والخروج للحدائق والزيارات.

بدأنا فترة من الاستقرار الوظيفي والعائلي والخروج من هموم الحياة اليومية والبحث في بدائل لاشجان الغربة بزيارة الاصدقاء السودانيين المعوثين المنتشرين في شتى انحاء لندن. وكان يصحبنا في الدراسة متقدما عنا بسنة في الوصول وبعدنا بسنة في التخرج الزميل الوفي الدكتور يحيى عون الله يونس والذي حصل على دبلوم الصحة العامة وبدأ التحضير لدبلوم الطب النفسي معنا، وقد سعدت بمعرفته عن قرب وصداقته عن حب وتقدير وكان ولايزال يغمرنى بمودة خالصة و صداقة مخلصة من قلب عامر بالايمان.

عندما تم توزيع الأطباء المبعوثين على التخصصات المختلفة كان نصيبي في مستشفى (بيت لحم) في جنوب لندن في قسم العجزة والمسنين تحت إشراف البروفسير (فلكس بوست) أحد اكبر المراجع في هذا التخصص، وعندما تم توزيع الحالات كان من نصيبي حالتان الاولى في الثمانين والثانية في الثالثة والثمانين من العمر. فإذا كان عامل اللغة في الاصل يمثل عامل إعاقة للتواصل فإن الاعاقات الأخرى جعلت هذا الامر شبه مستحيل. فالتقيت بالأخ الدكتور يحيى في كافتيريا المستشفى وعرفت منه أنه يعمل في قسم علاج مرضى الادمان مع البروفيسور (قريفث ادوارد) أكبر رموز التعليم في هذا المجال وحتى لا أكثر من الاطراء على اساتذتنا فاكرر نفسي ينبغي أن أقول إن كل الاساتذة الذين كانوا يدرسون في المودزلي قلعة الطب النفسي الحصينة في جامعة لندن كانوا وما زالوا علامات بارزة في هذا المجال لم تتكرر وانا قديم معاصر لواقع هذا التخصص حتى كتابة هذه السطور.

قطعاً للاستطراد فقد قال لي الدكتور يحيى لماذا لا تطلب من البروفيسور جون كوبر مساعد العميد تحويلك الى قسم آخر؟ فقلت له : طبقاً لقاعدة الطاعة العمياء التي نشأنا عليها في الخرطوم خشيت من العاقبة وأنا خارج لتوي من نفق مظلم لاأصدق أنني خرجت منه بعد. قال لي هنا لاتوجد الانفاق التي تتحدث عنها ويكفي أن تذكر له أن المرضى عندنا نادراً ما يعمرون إلى هذه السن وإن فعلوا فلا نأخذهم إلى المستشفى ونعتبرهم مصدر خير وبركة.

في اليوم التالي يممت وجهي شطر مكتب البروفيسور جون كوبر وطلبت مقابلته فاستقبلني و سأل عن العمل والحياة والاسرة وحدث ولا حرج فكان حديثي برداً و سلاماً على ابراهيم و (يا غريب كن اديب) فبدأت الحديث عن اختلاف الثقافات بين الشعوب في العادات والمعتقدات وبين الدول النامية والمتقدمة وتطور النظم الصحية التي تساعد في تقدم عمر الفرد في الدول العظمى مما يشكل مشكلة ليست موجودة لدينا. وعلى الفور ادرك أنني بصدد الحديث عن المسنين فكفاني موؤنة الشرح والاطالة وسألني إن كنت ارغب في تغيير التخصص ورددت بالايجاب. فقال لي : لقد بدأ الدكتور يونس في قسم علاج الادمان فإذا أردت أن تعمل معه فسوف احولك الى هناك.

قبل أن انصرف أردف قائلاً إن نسبة المعمرين فوق الخامسة والستين في بريطانيا الآن تصل ٥-١٠ وسوف ترتفع في خلال عقدين إلى ٢٠-٢٥ ٪ واتصور أنكم في خلال عقدين إلى ثلاثة عقود سوف تعانون من نفس المشكلة وبالنسبة لي كان الخروج من المشكلة الحالية هو الحل الامثل لأننا يندر أن نخطط بهذه الصورة.

والحق يقال لم تكن هذه المقابلة حلاً مؤقتا لمشكلة بل كانت بداية علاقة علمية وشخصية بيني والبروفيسور جون كوبر تجذرت منذ ذلك اليوم في لندن ونوتنجهام والبحرين والامارات وحتى كتابة هذه السطور معلماً وخبيراً وأخاً ناصحا و صديقاً كبيراً كان له فضل كبير في كثير من الإنجازات في حياتي العملية.

ذهبت إلى قسم علاج الادمان ووجدت عالماً خاصاً يعج بضحايا الخمر والحشيش والافيون وأن هنالك تصنيفات لهذه الفئات وإنها ليست فئة واحدة من الضالين والمجرمين في سلة واحدة في السجون أو المصحات وإن النظرة الانسانية لهم كمرضى في المكان الأول هي الخطوة الاولى في الطريق الصحيح لعلاجهم أو مساعدتهم وقد لمست الفارق النوعي والموضوعي في طبيعة التعامل مع هذه الفئات.

من ثم انتقلت إلى العمل مع البروفيسور (روبرت كولي) في قسم الطب النفسي العام للكبار ومعه خبير علم النفس البروفيسور شابيرو و بدأت اتبين طبيعة العلاقة داخل الفريق العلاجي المتكامل كما تهيأت لي فرصة الرؤية النقدية لهذة العلاقة من خلال المساجلات والمناظرات المشهودة بين العالم الطبيب النفساني الشهير (اليوت اسليتر) و خبير علم النفس الشهير البروفيسور (آيزانك) وكان كل منهما يحاول أن يثبت ماينفى أولوية الآخر في علاج المرض رغم الحرص على ضرورة تكامل النظرة إلى الاثنين في الممارسة العملية. الشاهد أن هذه المحاضرات ظلت من المحطات البارزة في ذهن كل الدارسين للطب النفسي في جامعة لندن.

بدأنا الدورة التدريبية لطب الاعصاب لمدة ستة أشهر في مستشفى (كوين اسكوير) وستة أشهر أُخرى في مستشفى (ميدافيل) وكنا نلتقي بزملائنا من المبعوثين للتخصص في الطب الباطني منهم الدكتور علي الشيخ والدكتور صديق عليب وحتى بعض كبار أساتذتنا في الخرطوم والذين درجت وزارة الصحة على ابتعاثهم في دورات تنشيطية تفسر ذلك المستوى المتميز من

الاداء والتدريس لدى أمثال الدكتور عبدالرزاق المبارك والدكتور حسن حاج علي. واذكر على سبيل المثال محاضرة حول شلل الوجه (العصب الدماغى السابع) وكان قد قدم لنا الدكتور المبارك حالة في أحد عنابر الباطنية في مستشفى ام درمان عند ما كنا طلبة في كلية الطب في السنة الأخيرة وما زالت عالقة بذهني وأنا اتابع المحاضرة في لندن مع البروفيسور المشهور (دينس هل) أستاذ ورئيس القسم، وقلت ماأروع ذلك الجيل واعيد ألا رحم الله جيل الصفوة الذي كان يتمتع بموهبة التحليل وقدرة التعليل وفن استغلال الحواس في التشخيص والعلاج.

وفي قاعات المودزلي كان يتولى الاشراف على مجموعة الأطباء المبعوثين من وراء البحار الدكتور(جوليان لف) استاذ طب المجتمع و كان يناقش معنا أثر الثقافات والمعتقدات في تشكيل الاعراض المرضية ووبائيات الأمراض النفسية كظاهرة الانتحار في الشرق والغرب وكنا نلتقى مع الدكتور (ايذاك ماركس) ليحاضرنا في علم النفس السلوكي واسباب القلق وعلاجه بتعديل السلوك و تحوير القدرات المعرفية.

وكان يحاضرنا الدكتور(مالكوم لادر) أستاذ علم العقاقير والمؤثرات العقلية وكانت بدايات هذا العلم بعد اكتشاف مضادات الأمراض الذهانية في نهاية الخمسينيات وقد زارنا في نهاية القرن العشرين في دولة الإمارات وقد اصبح هذا العلم احد مصادر المعرفة الاساسية في اكتشاف المادة الكيميائية في الموصلات العصبية والتي تؤدي إلى الاضطرابات النفسية وله دور بارز في التشخيص والعلاج والابحاث.

الآن وقد اكملت الدورات التدريبية الاساسية في لندن طلبت من سكرتيرة العميد الرقم الذي لايمكن القفز عليه (مس آرنولد) أن تساعدني في الحصول على سكن لاسرتي .و كنت في ذلك الوقت اعمل مع البروفيسور (جيرالد رسل) عميد المعهد في وحدته الخاصة (بعمليات الايض – الهدم والبناء) وكان أن بدأ الانتقال إلى مستشفى (رويال فري) فرفعت الهاتف وقالت له : جيرالد .. هل يمكن أن تلحق دكتور عمارة بوحدتك الجديدة بحيث يحصل على سكن في مستشفى (فراين بارنت) في شمال لندن؟ وقد كان فرحلت وحصلت هنالك على سكن جيد في إحدى عمارات بنك باركليز باجر متواضع كما بدأت احصل على راتب من المستشفى حيث بدأت أعمل واتحمل مسئوليات وظيفية ورب ضارة نافعة فقد اكتشفت أن المبعوثين على حساب هيئة

الصحة العالمية أو المجلس البريطاني لايحق لهم الجمع بين المنحة والوظيفة بينما لاينطبق هذا الشرط على مبعوثي الحكومه وكانت هذه المعلومة من بركات (مس آرنولد) فكان العبد في التفكير والرب في التدبير وبدأ الغيث أوله قطر فينهمر.

بدأت التنقل بالسيارة إلى مستشفى المودزلي لحضور محاضرات البروفيسور (روبرت كندل) حول الاكتئاب ومعاينة الحالات السريرية مع البروفيسور (روبرت كولي) ولكنني وجدت أن العمل داخل المستشفى يعطي خبرة عملية لايمكن أن تتوفر في الانتساب الموجه الذي لايوفر لي أكثر من حالة أو حالتين على مدى دورة التدريب إلى جانب أن المسئولية المباشرة عن المريض تتولد عنها ضرورة الاحتكاك والتعلم من بقية أفراد الفريق العلاجي خاصة في المناوبات الليلية والتي علمتني أضعاف ماتعلمته من المحاضرات واللقاءات العلمية.

■ منطقة اكسفوردشير

ذات مرة زارنا في عطلة نهاية الاسبوع الصديق الدكتور صلاح ابوبكر والذي كان يدرس تخصص أمراض النساء والولادة في منطقة (آيلسبري في اكسفوردشير) وكانت أُسرة عزيزة جداً من الخرطوم فطلب مني الانتفال إلى اكسفورد حيث نكون بجوارهم خاصة وان هنالك مستشفى (سانت جورج) فتحدثت إلى (حلالة العقد .... مس آرنولد) فوعدتني بمخاطبة أحد (ابنائها) هنالك وطلبت مراجعتها في اليوم التالي.

رجعت إليها لتبشرني بأنها قد خابرته وطلب مقابلتي يوم الأثنين ذهبت بسيارتي إلى هناك لمقابلته واستكشاف الطريق وعندما وصلت إليه فوجئت بأن (الابن البار) كان المدير الطبي للمستشفى فرحب بي ووعدني بمساعدتي في الحصول على الوظيفة المعلن عنها في الصحف.

عندما جئنا للمعاينة كان من بين المتقدمين أطباء أجانب وانجليز من اسكتلندة وايرلندة وفكرت في الاقلاع عن الدخول في منافسة أعلم سلفاً انني الخاسر فيها وعندما جاء دوري بدأت الاسئلة من أعضاء اللجنة وعند ماجاء دور المدير الطبي أشار بأنه يعرف المتقدم وليست لديه اسئلة وخرجت انتظر مع المنتظرين خروج سكرتير اللجنة ليعلن النتيجة وكانت مفاجأة كبرى عندما نادى اسمي مهنئاً بالفوز بالوظيفة متمنياً للآخرين حظاً سعيداً طالباً منهم تعبئة استمارة نفقات السفر والاقامة لتدفع لهم.

لم يخالجنى أدنى شك في ان توصية مس آرنولد كانت خلف هذا الفوز وقبل أن أغادر طلب مني الآخرون الدخول لشكر اللجنة ولم أكن أعرف هذا البروتوكول ففعلت في أدب شديد وبدأت اجراءات استلام العمل التقيت بالدكتور كرومر المدير الطبي لاشكره وأساله عن طبيعة العمل فأرسلني إلى أحد الاطباء ووعدني بأن يتصل بزميل له في معهد الدراسات النفسية في جامعة اكسفورد القريبة منا لاحضر معهم بعض الفعاليات العلمية للمتدربين للحصول على دبلوم الطب النفسي على نمط جامعة لندن وكان أعلى مؤهل علمي في هذا المجال تم ابتعاثنا إليه ولمدة ستة وثلاثين شهراً من ٩/١٩٧٠ - ٩/١٩٧٣.

واستقر بنا المقام مع اسرة الدكتور صلاح ابوبكر والذي كان يعمل في مستشفى (استوك ماندفيل) العام الشهير بعلاج كثير من حالات جراحة الاعصاب من منطقة الشرق الاوسط وبدأت زياراتى إلى معهد الدراسات النفسية في اكسفورد على مسافة بضع دقائق بالسيارة والتقيت هنالك بالبروفيسور (تيليارد كول) والذي كان يشرف على كورس تدريبي خاص بالتحضير للدبلوم على نسق (جلفورد كورس) في لندن وهذا خفف عني مشقة السفر إلى لندن لحضور هذه الدورات.

وكان يحضر هذه الدورات أطباء من خارج اكسفورد لأنه برسوم مقررة وقد التقيت فيه باطباء عرب منهم الزميل المصري الدكتور حسن عبدالرحمن والذي يشاء القدر أن يجمعني به في دولة الإمارات في مستشفى (توام) وكنت احتفظ له بصورة تذكارية من كورس اكسفورد.

زارنا في منزل المستشفى في اكسفورد في رحلة استشفاء صديق الاسرة الأخ الفاضل رجل الاعمال الكبير بالخرطوم بحرى السيد كامل أمين مصطفى بصحبة صهره السياسي البارز والمحامي على محمود حسنين والذي كان يشكو الأمرين بعد خروجه من سجون مايو وفي نفسه شعور بالألم أشد مرارة من آلام الكلى التي كان يعاني منها العم كامل أمين والذي خضع لريجيم غذائي قاسٍ في مستشفى (يو سي اتش) في لندن ملأه كراهية للندن وزادنا نفوراً منها وكان رجلاً مرحاً محباً للحياة متمرساً فيها.

في هذه الفترة سافرت أسرتي إلى الخرطوم لحضور زواج عائلي وبقيت وحدي مع الدكتور صلاح وأسرته في بيتي ذي الطابقين والحديقة الخلفية وجراج السيارة والذي فاتني أن اتحدث عنه كحلم عابر طاف بذهني كما يقول صديقنا الشاعر الرقيق حسين بازرعة ولكن نفس الصديق هو الذي أجج مشاعر الحزن واذكى جذوة الشوق الملتهب والحنين للوطن (النوستالجيا) عندما استمعت إلى صديق العمر ورفيق الصفا وريح الصبا الفنان عثمان حسين يغني ذات ليلة من إذاعة أم درمان التي قل مايجود بها الزمان في بريطانيا اغنية بازرعة حين يقول: (كل طائر مرتحل قطع البحر قاصد الأهل حملته أشواقي الدفيقه ... ليك يا حبيبى للوطن لترابه لشطآنه للدار الوريقة) و عندما سألت الدكتور صلاح من أين لك هذا المذياع؟ اجابني بأنه جهاز روسي اشتراه من منطقة (بيزووتر) من لندن والذين زاروا لندن لابد انهم يعرفون هذه المنطقة المأهولة بالاخوة العرب المسكونة بهمومهم العامرة باحتياجاتهم المعيشيه من أكل وشرب وصحف.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي ذهبت بسيارتي إلى لندن واشتريت الجهاز وأنا طوال الطريق أُمني نفسي برحلة ممتعة إلى السودان عبر موجاته العشر. و صلت المنزل الموحش لافتح الجهاز وكان أول ماسمعت ذلك الصوت السيمفوني ذا الطبقات المترادفة كامواج البحر ذا الاصداء المترددة في عمق الدهليز يتمايل طرباً يدغدغ الحواس صوت الفنان العملاق صاحب الحنجرة الاسطورية في اغنية بددت وحشة البيت الخالي من الاطفال...تقول :

يا روضة الروض الظليل   جاني طيفك مع النسيم العليل

وكأنما حفرت نفقاً في ذاكرتى أو نقشت رسماً في مخيلتي بقيت عالقة في وجداني في دفتر منفصل في ارشيف الذاكرة حتى عام ١٩٩١ عندما جئت إلى الخرطوم لحضور زواج ابني الاكبر الدكتور نادر وكانت ليلة تعاني من انقطاع التيار الكهربائي وبصحبتى صديق العائلة الفنان عثمان حسين وإذا بصوت ينبعث من داخل البيت يغني هذه الاغنية ويرحل بي في لحظة فرح ورحلة دهشة ويقطع في ثوان مسافة عشرين سنة إلى اكسفورد ودخلت فإذا بالفنان هو (سامي المغربي) فاحتفيت به ايما حفاوة و كأنني اعيد الشريط القديم..شريط الذكريات.

وعودة إلى الذكريات...عادت اسرتي من الخرطوم واخذتهم إلى حديقة (هايد بارك)

للترويح من معاناة السودان في حقبة الزلازل البركانية في بداية السبعينيات وهنالك التقيت ببعض الأخوة الذين سمعت عن وجودهم في انجلترا ولم اسعد بلقائهم ومنهم الدكتور عبدالرزاق الفكي والدكتور أحمد طه يعملون في منطقة لنكلنشير وقضينا وقتاً جميلاً وعرفت أن المستشفى التي يعملون فيه اشبة بضيعة سودانية تتوارثها الأُسر مبعوثاً تلو الآخر. عدت من لندن لاعرف أن الأخ الدكتور صلاح سوف ينتقل إلى مستشفى في (هل) شمال انجلترا لمواصلة دراسته.

■ منطقة لنكلنشير

وبعد بضعة اسابيع التقيت بالدكتور أحمد طه وعلمت أنه قد حصل على دبلوم الطب النفسي وهنأته على ذلك واخبرني أنه يخطط للعودة النهائية للسودان وأنه سيترك مستشفى (روسبي) في لنكلن ذلك الموروث الشرعي للأطباء السودانيين والتركة الوقف عليهم وأن إدارة المستشفى ترغب في تعيين طبيب سوداني آخر قبل مغادرته فإذا كانت لدي الرغبة فعلي الحضور لمقابلة المدير لأتعرف عليه معه فطلبت منه مهلة بضعة أيام أشاور أُسرتي وأُسرة المستشفى.

وفكرت في الأمر من عدة زوايا الأولى المحافظة على هذا الإرث من السمعة الطيبة للسودانيين والثانية الاحتفاظ بهذا الشاغر الوظيفي والذي اثبت فيما بعد أنه خير معين للكثيرين الذين تعاقبوا على الدراسة في لندن بل امتد ليشمل مستشفى (سانت جون) المجاور له. ذهبت لمقابلة مدير المستشفى (هيوبرت كول) والذي رحب بي واثنى على الأطباء السودانيين المتعاقبين على المستشفى وعائلاتهم والعلاقات الطيبة التي كونوها مع أُسرة المستشفى فقبلت العمل ووعدته بالحضور في اسرع وقت ممكن قبل سفر الدكتور أحمد طه إلى السودان.

لقد شجعنى أكثر على هذه الخطوة انتقال البروفيسور (جون كوبر) إلى جامعة نوتنجهام ووحدته الاكاديمية في مستشفى (مابرلي) وكانت على بعد اميال من روسبى وقد وعدني بأنه سوف يعقد كورسات تدريبيه للتحضير للدبلوم والزمالة وأن بوسعي ان احضر هذه الدورات بالتنسيق مع إدارة المستشفى مرتين في الاسبوع. قبل عودتي إلى اكسفورد بدأت اتحدث مع الدكتور أحمد طه عن المستقبل في السودان. وقد أُعلن في عام ١٩٧٢ عن ميلاد الكلية الملكية البريطانية للطب النفسي أُسوة بالكليات الملكية في التخصصات الاخرى وتتكون من الجزء الأول والجزء الثاني وقد أُعلن عن اعفاء كل الاطباء الحاصلين على دبلوم الطب النفسي قبل

ميلاد الكلية من الجلوس للجزء الأول كما تم اعفاء جميع الحاصلين على وظيفة اخصائي في بلادهم أو يشغلون مناصب مرموقة أو قدموا خدمات متميزة في مجال الطب النفسي من شرط الجلوس للجزء الثاني واعتبروا اعضاء مؤسسين في الكليه شريطة تقديم الوثائق الثبوتية.

سألت الدكتور أحمد طه لماذا لايستفيد من هذه الفرصة ويتقدم للجزء الثاني للحصول على الزمالة وفي ظني أنها سوف تصبح قريباً المؤهل الأول للمنافسة على وظائف عليا في هذا المجال فأخبرني أنه منتدب من السلاح الطبي للحصول على الدبلوم فقط وأن ترقيته تمت إلى رتبة عقيد على هذا الاساس ولابد له من العودة فقلت له ان الرتبة قد تعوض ولكن الزمالة لن تعوض بعد الدخول في دوامة العمل في السلك العسكري وعبثاً حاولت أن اثنيه عن قرار العودة فسافر تصحبه السلامة إلى السودان.

في فبراير ١٩٧٣ حصلت على دبلوم الطب النفسي وتبقت أمامي سبعة أشهر من البعثة الرسمية، وكنت قد قررت الجلوس للزمالة وكان أول من حصل عليها من السودانيين الدكتور محمد علي صالح النابغة في ذكائه المتفرد في عطائه وقد تصادفت زيارته لنا مع الأخوة الدكتور فيصل علي صبره والدكتور جراح العظام عبدالمنعم الزين الشفيع والدكتور مصطفى الطاهر وأسرته والدكتور فاروق عبدالعزيز وكلاهما كان يتخصص في امراض النساء والولادة وبعض الاخوة الطيارين العسكريين المبعوثين في قاعدة (كرونويل) الجوية المجاورة لنا وبدأنا نكون جالية صغيرة تجتمع في السراء والضراء رغم المسافات البعيدة.

وكان أول حدث جلل يزلزلني من الداخل اتصال هاتفي في الصباح الباكر من السفارة السودانيه بلندن ينبئني بأن والدي مريض بالمستشفى ويستفسرون عن تاريخ حضوري فأيقنت على الفور أن الأمر ربما تخطى مرحلة الخبر لأنني أعلم علم اليقين أنه إذا كان والدي يعي مايدور حوله في فراشه على قيد الحياة فلن يسمح لأحد أن ينقل لي خبر مرضه حتى لو كنت في جنوب السودان وليس في خارج السودان خشية أن يشق علي وهو الصلد الجلد الصبور الجسور الفخور بي المسكون بحبي المفتون بمحبتي فطلبت من السفارة الحجز لي في نفس اليوم وقابلني في المطار اعضاء السفارة ومسئول الخطوط الجوية السودانية الصديق (علي بركات) الشقيق الأصغر لصديق الجميع الراحل عميد الفن السوداني الاستاذ أحمد المصطفى وقرأت في عيونهم

نفس هواجسي دون الافصاح عنها.

وصلت في نفس الليلة إلى الخرطوم والناس في طريق عودتهم من (مقابر حلة حمد) واحسست ساعتها أن أحد الأعمدة الأساسية في بنياني الداخلي قد انهار وأن الغبار والاتربة المنبعثة من داخلي هي التي تعفر وجوه المستقبلين وتنهال على رؤوس الثاكلات مع غبار اللواري القادمة من مدينة شندي وضواحيها فلم يغمض لنا جفن ولم تهدأ لنا عويل حتى مساء اليوم الثاني عندما هدأت حركة القادمين إلى جحيم المأتم.

وبعد بضعة أيام رتبت فيها شؤون زوجته المكلومة عدت إلى بريطانيا احمل جرحاً عميقاً في نفسيتي وشرخاً كبيراً في تركيبتي استعنت كثيراً بادوات مهنتي في ترميمه وصب اطنان من خرسانة الايمان واليقين على نتؤآته المتعددة وكانت نقطة تحول في حياتي حملتني إلى عوالم أُخرى عوضتني فقدان السند العاطفي الذي كان يتوهج في داخلي وقليل من يرى بريقه بالخارج وانطوت صفحة في حياتى لم تزل تحتل صدر الأرشيف الداخلي وكتبت قصيدتي (وقفة عند قبر أبي) في ديوان (قصائد من بريطانيا) ص٣٥٨.

وكأن بريطانيا تريد أن تقول لنا: (الدنيا يومان..يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإن كان عليك فلا تضجر) وكأن الحياة قد بدأت تبتسم لنا بعد النكبة وتفتر عن ثغر بشوش بعد الصدمه يقول:

نعم الاله على العباد كثيرة واجلهن (سعادة الاولاد)

ولم يعكر صفو هذه السعادة إلا خبر جاء من الخرطوم مفاده أن الوزارة تطلب من كل الاطباء المبعوثين للحصول على الدبلوم وحصلوا عليه أن يعودوا إلى الخرطوم ولا يبدأوا الدخول في مشروع الزمالة و(إياك اعني واسمعي ياجارة) وكأن الوزارة لم تدرك بعد أن كل الطرق تؤدي إلى لندن وأن الحصول على وظيفة لايشترط موافقة الوزارة وبما أننا الدفعة الوحيدة التي لم تحصل على منحة من هيئة الصحة العالمية أو المجلس البريطاني فلم نكن نحتاج إلى براءة ذمة من الحكومة البريطانية وهي أدرى بمصالحها من أي حكومة أُخرى وكنا على استعداد للتخلي عن راتب وزارة الصحة والذي لا يسمن ولايغني من جوع وهذا ماحدث.

في نفس الوقت الذي جاءت فيه هذه الاخبار حصلت فيه على وظيفة اخصائي في نفس المستشفى ووصل راتبي أضعافا مضاعفة فذهبت إلى لندن استجلي طبيعة الأمر وكان الود المفقود بيني وبينها منذ صراع البقاء الأول تتسع رقعته ويطول إلى مسافات شاسعة وأبعاد خرافية وما زادني هذا إلا تصميماً على الاستفادة من بقية بعثتي والاستمتاع بالنعيم الذي تفشى أمره وذاع وعم القرى والحضر.

ويشاء الله أن يكمل نعمته علينا في الاحتفال بهذه المناسبة عندما علمت بقدوم عميد الفن السوداني وصديق الجميع والسفير المتجول في كل انحاء العالم الذي يحمل بين ضلوعه حب كل جالية أو مجرد أُسرة سودانية تعيش خارج السودان. ذهبت إليه في لندن وطلبت منه زيارة أُسرتي خاصة وانه جاء تصحبه زوجته السيدة الفاضلة وإحدى كريماته وابنه وقد كانت تربطنا بالطبع علاقات أُسرية في الخرطوم عندما كان نقيباً للفنانين في السودان وكنت عضواً في لجنة النصوص والالحان بالإذاعة السودانية.

وصلنا إلى المنزل واقام لنا حفلاً جميلاً دعونا له مجموعة الاخوة السودانين الذين يسافرون مسافات خرافية من أجل حضور هذه المناسبات الموسميه وكان هذا فتحاً كبيراً في عالمنا النائي الصغير وتوالت الافراح والليالي الملاح وعاد العميد ليواصل رحلته إلى المانيا.

وقابلت في لندن الصديق الدكتور عمر الرفاعي الذي كان يسكن في داخلية (برنسيس مارينا) في مستشفى المودزلي والدكتور عبدالرحمن حسب الرسول بأسرته في حي (بركستون) يجاوره الدكتور صالح ياسين في تخصص الباطنية وقد اقترحت على الدكتورين عمر وعبدالرحمن زيارة المستشفى ومقابلة المدير لحاجتهم إلى طبيب سودانى آخر يشغل شاغر وظيفتي. لقد فاتني أن أذكر أن مدير المستشفى قد ذكر بالخير الزميل الأكبر الدكتور أبوالقاسم سعد والدكتور الزميل عبدالرزاق الفكي عندما كانا يعملان في المستشفى في الماضي. بدا المستشفى أشبه بخلية النحل من نشاطات السودانيين من كل انحاء بريطانيا يعطرون المنزل الكبير الذي اسكن فيه مجاناً وبلا مقابل من عطاء المستشفى وكان في موقع يحكم قبضته على مدخل المستشفى وخلفه لوحة زيتية رائعة للريف الانجليزى الساحر وبدات التفكير في تغيير السيارة الاوستن فاشتريت سيارة (هلمان هنتر) تعبيراً عن مشاركة للسودانيين هتافاتهم في ذلك الوقت مرددين (راكب الهنتر وعامل عنتر) وحينئذ انضم إلينا بأسرته الزميل الأكبر

الدكتور أمين علي نديم وكان في دورة تدريبية لتخطيط الدماغ في (مستشفى سانت جونز) القريب منا.

بدأنا مرحلة استقلالنا عن لندن عندما اكتشفنا وجود متجر باكستاني يوفر المأكولات الشرقيه واللحم الحلال وكثيراً مما نستورده من لندن ما عدا الصحف العربيه فبدأنا نتحرر من شظف العيش وقسوة المعيشة فغيرت الهنتر بسيارة (أوبل) بيضاء أوتوماتيك تذكرة بسيارتي الأولى والتي اشتريتها بعد التخرج من وزارة المالية بالخرطوم في سنة الامتياز عام ١٩٦٥ بالاقساط المريحة المعروفة من الصديق الاخ العقيد جعفر النميري آنذاك... وكان قد اعادها إلى المالية بعد أن تقرر نقله إلى حامية جبيت وعاد بعدها ليقود انقلاب مايو ١٩٦٩ وكانت (أوبل زرقاء لوحة رقم ٤خ-٣٦ وظلت معي حتى انتقلت بها إلى ود مدني واشتراها مني الأخ الصديق الريح السنهورى بثلاثمائة جنيه سودانى.

اتصلت بالأخ الدكتور عمر الرفاعي في لندن لمقابلة مدير المستشفى في شأن الوظيفة الشاغرة وجاء في اليوم التالي و قابلنا سوياً المدير ورحب بالزميل الدكتور عمر وحدثه عن إعجابه بكل السودانيين الذين عملوا في المستشفى على مدى سنوات طويلة وشكره الدكتور عمر واخبره أنه يرغب في العمل ولكن بعد حصوله على الزمالة حسب تعليمات الوزارة وبعد خروجنا من المكتب حاولت اقناع الأخ عمر بأخذ الوظيفة وكلانا حصل على الدبلوم ويحضر للزمالة وان الوظيفة لا تنتظر فقال لي أنه استمع إلى الزميل الكبير الدكتور حسبو سليمان في زيارته الأخيرة إلى لندن يطلب منا ألا نلتحق بوظيفة قبل نهاية البعثة فقلت له إن البعثة اصلاً انتهت بالحصول على الدبلوم في ثلاث سنوات لم تنته بعد والزمالة حدث جديد لم يولد عندما تم ابتعاثنا ولن نعود إليها مرة أُخرى ونحن نجتهد في الحصول على الزمالة دون موافقة من الوزارة فلماذا نطلب موافقتها على العمل طالما أن عملنا جزء من التحضير للزمالة.

فاتصلت في اليوم التالي بطلب من المدير لأي سوداني يملأ الشاغر. جاءني الدكتور عبدالرحمن حسب الرسول وقابل المدير وأبدى رغبة في العمل مباشرة بعد اللقاء ولم تمض بضعة أيام إلا وقد جاء بأُسرته من حي (بركستون) الشهير في لندن إلى الريف الانجليزي في لنكلنشير وقد كانت نقلة نوعية في حياته لم تكن تقبل المساومة فيها عندما اتفق مع الدكتور عمر على أن

يترك له الشاغر بعد أن يستجم من الهرولة في الباصات والانفاق في لندن وعندما فكر الاخ عمر في الوظيفة بعد حصوله على الزمالة كان الأخ عبدالرحمن قد قطع شوطاً بعيداً في مشوار الرفاهية يصعب الرجوع منه وليس أدل على ذلك مما قاله لي عندما نقلت إليه رغبة الأخ عمر في الحضور للعمل قال : بعد كل هذه المعاناة لاشهادة لاوظيفه؟؟

في احد الأيام ذهبت إلى لندن عندما أخبرني طيب الذكر المرحوم ابراهيم شبيكه الملحق الثقافي بالسفارة السودانيه بوصول بعثة فنية سودانية للترفيه عن الجاليه السودانيه في لندن. وقد كان ابراهيم صديقاً عزيزاً من الخرطوم تربطني به علاقات شخصية مع الأخ الأكبر الدكتور يوسف شبيكة في عيادته في بحري عندما كنت اعمل فيها طبيباً مبتدئاً كما ذكرت والاستاذ الجليل الطيب شبيكة وأخيراً وليس آخراً الصديق الرقيق الشاعر المبدع الدكتور علي شبيكه صاحب (صيدلية الفن) في بحري والتي كانت تجمع الادباء والفنانين من كل حدب وصوب.

وجدت في بيت السودان باقة من الاصدقاء الاوفياء الفنانين عبدالعزيز محمد داوود والفنان عثمان مصطفى والفنان برعي محمد دفع الله والفنان علي ميرغني ومجموعة رائعة من العازفين والذين كان لهم الفضل الخالد في احياء حفل زواجي بلا أجر ولا عطاء ولا من ولا رياء في الخرطوم بحري في ١٩٦٦/٥/٣١ فقلت لهم:

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما   يظنان كل الظن الا تلاقيا

دعوتهم جميعا إلى المنزل بعد أن اسهبت في الثناء على الخضرة في الريف الانجليزي والفارق بين لندن وأنه لايستقيم أن يأتي أحد إلى بريطانيا دون مشاهدته والاستمتاع به وخلعت عليه كل صفات الروعة والجمال.

والذين سعدوا بالاستمتاع بخفة الظل وسرعة البديهة ودلالة مفردات في النكتة عند أبوداوود لايعجبون مما يقول فقد وعدته عند زيارته لنا أن (اذبح له خروفاً) من قطيع الريف وعلى الطريقة الإسلامية فقال لي (خلي الجماعة ديل هنا وخلينا من بيت السودان والكورن فلكس والبيض التعبان أنا لو اكلت) فلكس ذاته !!! (انوم واقوم جعان) ضحك الجميع واعتذروا لارتباط سابق على وعد أن آتي لهم في موعد يتم الاتفاق عليه مع ابو داوود قبل سفرهم.

عدت إلى البيت لارتب لهذا الحدث التاريخي وحاولت أن اجعل منه مهرجاناً غنائياً يسعد الأخوة ويفرح أُسرة المستشفى وتحدثت مع المدير لأسوق له الفكرة واخبرته بأنني أرغب في ختان نجلي (نادر و ناظم) وكنت قد كونت علاقات تسمح لي بالاستعانة بكل امكانيات وموظفي المستشفى لنجاح هذا الحفل وحدثته عن رغبتي في استضافة فرقة غنائية سودانية زائرة لاحياء حفل ترفيهي في قاعة المستشفى المخصصة لهذا الغرض يشارك فيه الموظفون حتى بعض المرضى وقد كان ولايزال هذا النشاط معروفاً للعاملين في حقل الصحة النفسية.

وكان مندهشا للفكرة وسألنى إن كانت فرقة نحاسية أم وترية؟ وعندما أخبرته بأنها وتريه هبطت وتيرة حماسة وإن لم يشأ احباطي فقال لي: كما تعلم - وكُنت أعلم علم اليقين - ان الناس هنا لايتحمسون للغناء الاوبرالي والآلات الوترية وقد يضايق ضعف الاقبال أفراد الفرقة فرتبها للمجموعة السودانية وهى كبيرة هنا: فأكدت له أن السودانيين سوف يحضرون في كل الاحوال ولكننا أردنا إسعاد الآخرين فأردف قائلاً: إننا سوف نوفر لهم كل شيء فاطمئنوا.

وافق على استضافتهم وحددنا الموعد وانتهينا من مراسيم الختان في مستشفى (جرانثهام) العام القريب منا والذي يضم عيادة خارجية للطب النفسي فذهبت إلى لندن وأحضرت كل المجموعة معي ما عدا الموسيقار علي ميرغني والذي كان متوعكاً وبقي في بيت السودان. وصلنا الى المنزل ووزعناهم على الشقق المعدة لهم وبقى أبو داوود معنا في المنزل قائلاً (خلوني مع المشاوي واسبح مع الكلاوي) إلا رحم الله عبدالعزيز ورطب قبره وانزل عليه شآبيب الرحمة بقدر ما اسعد الناس في حياته.

في المساء اقمنا الحفل في المنزل مع الاسر السودانية واخذنا لقطات تذكارية سجلت في شرائح سينمائية ملونة مع تسجيل صوتي لابو داوود وعثمان مصطفى ما زلت احتفظ بها حتى اليوم وأعود لها كلما هاجت بي الذكرى واضناني الحنين.

في الصباح الباكر افتقدنا ابوداوود داخل الغرفة في الطابق الأعلى فأخبرتني زوجتي أن عبدالعزيز قد خرج يشم الهواء في المزرعة الواقعة خلف البيت وقد كانت مسورة وممنوعة الدخول نظرت من الشباك وجدته قد قطع نصف المسافة إلى الداخل وبالجلابية والشبشب وكان منزلنا في ركن مدخل بوابة المستشفى كل داخل أو خارج لابد أن يمر به ناديت على أبوداوود ليقول لي :

ياأخى شايف الناس بتفسح في كلابها العندها سبعة ارواح ونحن ما نشم الهوا يطول رويحتنا الواحدة دي؟ قلت يمكن القى قهوة اشرب فيها كباية شاي في (الهمبريب) ده.

في الحقيقة إن اغلب الموظفين يخرجون بكلابهم للرياضة الصباحية حتى في أقسى ظروف برد الشتاء وقد كان مدير المستشفى احد هؤلاء عند ما خرج في الصباح مع كلبه وشاهد أبو داوود وعندما التقينا في استراحة قهوة الصباح قال لي :لقد شاهدت رجلاً ضخماً يتجول في المزرعة المجاورة (بجلبابكم) من هو؟ قلت له : هذا الفنان فقال لي وكيف تقول إنها فرقة وترية؟ وعندما اخبرت أبوداوود قال ضاحكاً: فاكرني زنجي امريكي.

اتصل بنا السيد الزبير من بيت السودان ليخبرنا بأن الفنان علي ميرغني قد ادخل المستشفى وفوراً قرر الجميع العودة إلى لندن.

وقال الفنان برعي محمد دفع الله أنه لن يعود مرة ثانية بالسيارة فأخذتهم إلى المحطة وقطعنا لهم بالقطار تصحبهم السلامة والذكرى العطرة والتي ما زالت تفوح من الارشيف.

توطدت علاقتنا شديداً بأُسرة المستشفى مديراً وموظفين وكثرت الزيارات العائلية والرحلات الترفيهية واصبحت بعض الممرضات والموظفات يقمن بمهمة (جلساء الاطفال) ويشهد الله قد زارنا صديق العمر الراحل السفير الرشيد نور الدين عائداً من الصومال إلى المغرب بعد أن كرمه الرئيس النميري وقال عنه (الرجل الذي أهداني ثورته) زارنا بصحبة صديق الطرفين الدكتور فيصل علي صبره وأسرته ولمس فرحتنا بالحال وكالعادة لم يفوت الأخ فيصل فرصة التذكير بضرورة الهجرة إلى الخليج وهنا تدخل الأخ الرشيد وقال لنا إلى متى تتهربون من الواقع في السودان وهو قدركم ومطالبون بتغييره فقال له الأخ فيصل (ان الزين يعيش الآن في الخليج بالسكن الكبير والمال الوفير والامتيازات الكثيرة ويتكلم عن الوطنية أما نحن فسوف نهاجر إلى الفردوس الموعود وتركنا السودان لمن اهديته ثورتك ونسي عشرتك) غادرنا الرشيد نور الدين إلى المغرب ولم نره بعد ذلك.

في مارس ١٩٧٤ رزقنا بابنتنا (آن) في قرية (جرانثهام) مسقط رأس السيدة (مارجريت تاتشر) رئيسة الوزراء حيث كان والدها صاحب بقالة في الحي وطلب مني الاصدقاء في المستشفى

أن اعطيها اسماً انجليزياً تخليداً لذكرى الايام العطرة في بريطانيا وتوالت الاقتراحات وكانت بريطانيا تعيش في تلك الايام أفراحها الاسطوريه بزواج الأميرة (آن) من السيد (مارك فيليب) فوافقت أمها على الاسم القابل للتعديل إلى الهندي والسوداني واقربهم اسم (آمنة) وهو اسم أمي رحمة الله عليها وكالعادة في غلبة الجديد على القديم والمستورد على الموروث في أزمة هذا العصر الذهبي للازمات سار عليها اسم (آن) و قد اهديت لها ديوان (قصائد من بريطانيا) والذي صدر عن دار الثقافة في بيروت عام ١٩٧٥ ولرب ضارة نافعة فقد احتفظت بجواز سفرها السوداني حتى بلغت سن الرشد وارادت الالتحاق بالجامعة واستفحلت آفة الهوية في البلاد العربية واصبح الحصول على جنسية اجنبية من أكبر هموم كثير من الشباب العربي وعلى استحياء شديد تقدمنا لها للحصول على الجنسية البريطانية لتفتح امامها آفاق المستقبل المجهول.

و كان اسم (آن) و اسم قرية (جانثهام) مسقط رأس رئيسة وزراء بريطانيا والتي استنت قانون الجنسيه لعام ١٩٨١ والذي يحرم التجنس بالميلاد....إلى جانب عوامل أُخرى ساعدت في حصولها على الجنسية البريطانية والتي اعترف - وللأسف الشديد - أنها قد سهلت عليها كثيراً من الصعاب التي واجهت اخوانها الكبار حتى داخل السودان ومازالوا يذكرونني بها ويتساءلون لماذا لم تنتظر الحصول على الجنسية بعد بضعة شهور؟ وما كانت مسألة انتظار ولكنها قضية خيار مازلت متمسكاً به مع الاعتذار فقد عانوا الكثير من ذلك.

في يونيو ١٩٧٤ حصلت على زمالة الكلية الملكية للطب النفسي وكان هذا بمثابة فرحة كبيرة بعد معركة طويلة خضناها منذ التخرج بجراح مثخنة و قلوب مؤمنة بحتمية الوصول الى الهدف النبيل من خلال الجهد الاصيل والنوايا الصادقة وطلب منى مدير المستشفى ان ابقى معهم وواصل زياراتي الدراسية عن طريق الانتقال مرتين في الاسبوع الى جامعة نوتنجهام والعمل مع البروفيسور جون كوبر في المستقبل وقد عرض علي الأخير نفس العرض وطلب مني التفكير قبل العودة.

ولكنني كنت احس بحنين جارف للعودة إلى السودان رغم كل الاغراءات المادية والادبية التي وفرت لي حضور كل المؤتمرات والدورات التدريبيه في جامعة (ليدز) مع البروفيسور الشهير

(ماكس هاملتون) صاحب اختبارات القياس النفسي للقلق والاكتئاب حيث التقيت بالزميل الدكتور خالد علام والذي لم اقابله منذ أن افترقنا في جامعة الخرطوم وفي جامعة(نيوكاسل) مع الدكتور (كولفن) أحد اعلام الطب النفسي للأطفال والمراهقين وكذلك الدكتور (فيليب باركر) في جامعة بيرمنجهام والبروفيسور (ماير سيم) وسافرت إلى أدنبرة وحضرت دورات تدريبيه مع الدكتور (كريتمان) في وحدة علاج التسمم الدوائي وحالات الانتحار والدكتور (اوسوالد) في مختبر النوم ونشاط الدماغ الكهربائي وكل هؤلاء اصبحوا فيما بعد علامات بارزة في حقل الطب النفسي وما كان ليتسنى لي حضور هذه الدورات لولا توفر الامكانيات الماديه إذ أنها غالية التكاليف في رسوم التسجيل والسفر والاعاشه.